الأخلاقيات والأديان السماوية

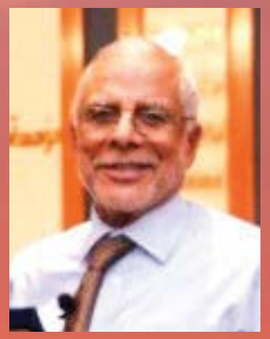

د. أحمد عبد الباسط
خبير التنمية البشرية
والمحاضر بالأكاديمية الوطنية لمكافحة الفساد

إذا كان للأمم أن ترتقى وتتقدم وتتخطى التحديات سعيا للكمال، وضمانا لرفاهية شعوبها، فعليها العمل والكد لإرساء دعائم الأخلاق والمثل العليا والضمير والقيم السامية التى بزغت منذ فجر التاريخ، وأكدتها الحضارات والأديان السماوية.

فقد جاءت الرسالات السماوية لتدعو فى جوهرها إلى القيم الإيجابية والأخلاقيات الحميدة وتزكى دعائم الفضيلة والتسامى والترفع عن الشهوات المحرمة

ويقصد بالأخلاق، بصفة عامة، مجموعة الأفعال والأقوال الحميدة التى تهدف إلى بناء مجتمع إنسانى فاضل، والأخلاق هى أساس كل حضارة راقية، لأنها دائما ما تسعى إلى أن تغير الواقع إلى الأفضل، من خلال الرقى بمنظومة الأخلاق والأخلاقيات.

ولهذا فقد كانت رسالة الأنبياء من آدم (أبى الأنبياء) وحتى رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، خاتم الأنبياء، هى إرساء وترسيخ دعائم الأخلاقيات والفضيلة والقيم السامية بين البشر وكما وصف الله تعالى «خاتم الأنبياء فى كتابه الكريم «وإنك لعلى خلق عظيم» . بل إن الرسول عليه الصلاة وافضل السلام لخص مهمته الإلهية فى قوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وهذا ما جبله الله عليه من الخلق الكريم، كالحكمة، والعفة، والشجاعة، والأمانة ،والعدالة ،والتواضع، والتسامح .

وقد إلتفت كثير من المفكرين والفلاسفة إلى أهمية الأخلاق فى بناء الحضارات والمجتمعات المتقدمة، وهو ما لخصه الشاعر المصرى العريق «أحمد شوقي» فى أبيات من قصيدة له تربط بين الأخلاق والحضارة قال فيها

صحوتُ واستدركتنى شيمتى الأدب..
وبتُ تنكرنى اللذات والطرب

بهذه الكلمات استهل الشاعر المصرى العظيم أحمد شوقى قصيدته الشهيرة العريقة التى تحض على الأخلاق والقيم، فيبدأ الشاعر بالحديث عن نفسه المفعمة بالآداب والأخلاق، فيصف نفسه بأنّها نفسٌ قد ابتعدت عن الملذات والطرب .

ويختتم الشاعر قصيدته العصماء بقوله:

«والصدق أرفع ما اهتز الرجال له ..
وخير ما عوّد ابنًا فى الحياة أب»
«و إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ..
فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا»

وقد يكون من المناسب فى البداية توحيد بعض المفاهيم المتعلقة بالأخلاق والأخلاقيات.

فالأخلاق هى المبادئ والقيم التى تحكم السلوك الإنسانى فيما يختص بالصواب والخطأ أو الذى يتعلق بالخير والشر، والذى يكفل تكوين المجتمعات والسعى المشترك نحو الخير

وبالطبع فإن الأخلاق تغيرت وتتغير على مر الزمان والمكان طبقا للمعايير والقيم الأخلاقية السائدة فى المجتمعات والثقافات والحضارات المختلفة زمانا ومكانا.

وقد اتفق العلماء والباحثون على أن هناك سبع تفريعات للأخلاق تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية للمجتمعات والحضارات المختلفة وهى ..

الأولى: الشجاعة والجرأة: فقد أثبتت القراءات والدراسات أن هذا العامل يقرر هرمية السلطة، فمن أظهر الشجاعة والجرأة والإقدام تكون له القيادة والريادة والزعامة للآخرين.

الثانية : العدل والإنصاف والحيادية: ويكتسب كل من يتبنون هذه الصفة علاوة على القناعة.. تداول السلطات، تأييد المجتمعات التى يعيشون فيها على مر الزمان والمكان.

الثالثة : التسليم للسلطة وللقوانين والتعليمات والتى تستهدف المصلحة العامة وليس المصالح الفردية.

الرابعة: مساعدة المجموعة والتى تستهدف إذكاء روح الولاء والانتماء والإيثار.

الخامسة: حب العائلة والتى تنمى الشعور والالتزام الأسرى وبما يؤدى إلى حسن تربية الأبناء وتقديم مواطن صالح للمجتمع وعلى درجة عالية من الأخلاق.

السادسة : رد المعروف والذى يحض على إذكاء روح الإيثار وليس الأثرة.

السابعة : احترام ملكية الآخرين والتى تحض على المحبة والعدالة والحيادية.

أما الأخلاقيات.. فهو تعبير يركز على القيم المجتمعية «كمنظومة من الأخلاق التى يقررها مجتمع ما».

وعموما فإن الأخلاق تعتبر القواعد المرشدة للأفراد، بينما الأخلاقيات تعتبر العلامات الإرشادية للمجتمعات.

الأخلاقيات المهنية (Business Ethics):

الأخلاقيات المهنية أو مايطلق عليه أخلاقيات العمل هى وثيقة تحدد المعايير الأخلاقية والسلوكية المهنية المطلوب أن يتبعها أفراد جماعة مهنية،

وعادة ما يوجد لكل مهنة أخلاقيات وآداب عامة تحددها القوانين واللوائح الخاصة بها. ويقصد بآداب وأخلاقيات المهنة مجموعة من القواعد والأصول المتعارف عليها عند أصحاب المهنة الواحدة، بحيث تكون مراعاتها محافظة على المهنة وقيمها ومبادئها وأعرافها .

ففى كل مؤسسة فاعلة يكون هناك حرص على توافرميثاق أخلاقيات مهنية يضمن حماية المصالح الفردية للعاملين علاوة على حماية مصالح وأهداف المؤسسة وتسهيل التعامل بين

اشتركت الأديان السماويه مع ديانات غير سماويه ومنها الديانة البوذيه فى بعض التوصيات التى تحض على الأخلاقيات الحميدة ومنها «لاتقتل – لا تسرق – لاتقل كذبا»

المؤسسة وأصحاب المصلحة (Stakeholders) .وكذلك تقديم قواعد أخلاقية تشمل المعاييرالسلوكية المناسبة (Code of Conduct)، ولأن الحياة تتطور فلابد من مرونة القواعد أمام المواقف والأزمات الجديدة حتى يمكن التعامل معها (Agility & Flexibility).

وحتى تضمن المؤسسة نجاح هذا الميثاق الأخلاقى فغالبا يتم إنشاء كيان للمتابعة وتقصى الحقائق والمخالفات إن وجدت مثل ميثاق شرف المهنة(Code of Ethics).

مفهوم المهنة :

المهنة هى نوع من أنواع العمل الذى يحتاج إلى تدريب خاص أو مهارة معينة فى مجال ما، وبشكلٍ أدق هى ممارسة تتطلب مجموعة من المعارف والمهارات التى يتم اكتسابها من خلال التعليم والخبرة، مثل الطب، الهندسة، التدريس، وغيرها

وللمهنة بشكل عام أخلاقيات ومبادئ يجب أن يلتزم بها كل من انتمى إليها ويمكن حصرها فى سبع مبادئ:

١. الاستقامة التى تتضمن الثقة والأمانة والمصداقية
٢. الشعور بالمسؤولية .
٣. النزاهة والاستقلال والموضوعية والتجرد والحيادية.
٤. الالتزام بوقت العمل
٥. المحافظة على أسرار المهنة .
٦. المعاملة الحسنة أوالرفق
٧. معالجة سلبيات الوظيفة (عدم الضرر) .

فى كل مؤسسة فاعلة يكون هناك حرص على توافرميثاق أخلاقيات مهنية يضمن حماية المصالح الفردية للعاملين علاوة على حماية مصالح وأهداف المؤسسة وتسهيل التعامل بين المؤسسة وأصحاب المصلحة

والالتزام بهذه الأخلاقيات المهنية يحقق أهدافا عدة من أبرزها

١. فهم السلوك الوظيفى وأهميته فى متابعة الالتزام بقوانين العمل .
٢. معرفة أخلاقيات المهنة وضرورة مراعاة اتباع الجوانب الأخلاقية .
٣. تحديد أساليب تطوير الذات

جاء الإسلام ليكمل مكارم الأخلاق، وينقذ البشرية من براثن الجهل والعبودية. فأبقى على ما كان عليه الناس من أخلاق حسنة وأثنى على حُسن الخلق وحث على التحلى بها لما لها من أهمية كبيرة على الفرد والمجتمع. ونهى كذلك عن الأخلاق السيئة

٤. التعلم والتدريب على كيفية التعامل مع ضغوط العمل .
٥. التعليم والتدريب الدورى والمستمر .
٦. التدريب على المهارات السلوكية للتعرف على السلوك الصحيح للعاملين وعلى كيفية فهم سلوك الآخرين والتمييز بين السلوك الأخلاقى وغير الأخلاقى.

الأخلاق والأديان

إذا اتفقنا على أن الأخلاق هى من أهم المكونات والعناصر الأساسية لوجود وبناء وبقاء ونماء وارتقاء المجتمعات على مر العصور، فإنه يلزم توافر مجموعة من القيم والمبادئ والمعايير والقوانين والقواعد التى تقوم بتنظيم وترشيد العلاقات والسلوك للأفراد والمجموعات، كما تحث على الفضيلة والسلوك السوى القويم ومايستتبعه من خير وسعادة ورضاء،

وهذا ماتادت به غالبية الأديان على مر العصور والأزمان لتنظيم العلاقة بين العبد وربه،وبين كافة المخلوقات بهدف الوصول إلى النعيم فى الدنيا والآخرة.لذا فقد دعت معظم الأديان إلى التمسك بأهداب الأخلاقيات والفضيلة والخير، وحذرت من الشر والفسق والفجور. واشتركت الأديان السماوية مع ديانات غير سماوية ومنها الديانة البوذية فى بعض التوصيات التى تحض على الأخلاقيات الحميده ومنها «لاتقتل – لا تسرق – لا تقل كذبا – لا تتناول المسكرات - لا تزنِ».

الأخلاق واليهودية

نجد أن الوصايا العشر هى أول مرحلة من مراحل علم الأخلاق فى العهدالقديم(التوراة). وتحتل الوصايا العشر مكانة أساسية سامية فى التعاليم الأخلاقية فى العهد القديم.وعندما نراجع نص هذه الوصايا العشر التى أمر بها الله بنى إسرائيل فى سفر الخروج، الإصحاح ٢٠ سنجدها تركز كلها على الأخلاق..

١. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِى.
٢. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِى الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِى الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ.
لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ.
٣. لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً.
٤. اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ.
٥. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِى يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ.
٦. لاَ تَقْتُلْ.
٧. لاَ تَزْنِ.
٨. لاَ تَسْرِقْ.
٩. لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ.
١٠. لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ.

الأخلاق والمسيحية

ولا تختلف المبادئ الأخلاقية فى المسيحية بل تجعل للأخلاق مكانة سامية فقد جاء على لسان أحد رجال الدين المسيحى أن الديانه المسيحيه تهتم بالإيمان والرجاء والمحبة « وأن المحبة هى أعظم هذه الصفات الثلاث , لأن المحبة هى الباقيه على الأرض وفى السماء وأن ثمار هذه المحبة هى « العطاء – الغفران – التسامح – قبول الآخر (مهما كان مذهبه أو ديانته، غنيا أو فقيرا).

فقد جاء فى الكتاب المقدس ....

لا تكنزوا الذهب والفضة .. لاتسجدوا للشيطان ..ولا تعبدوا الاصنام .. احترموا آباءكم احترموا أمهاتكم .

و تؤكد المسيحية على زرع الأخلاق فى الفرد منذ الصغر .

كما تؤكد أن الالتزام بهذه الأخلاق والحرص على تطبيقها لا ينبع من كونها أوامر يجب أن تطبق، وإنما هى (محبة الإنسان لخالقة) فالحرص على تطبيقها نابع من محبة الخالق، والسعى إلى الكمال ، وإن كان الكمال للخالق وحده، فالمؤمن عليه أن يسعى للتحلى بهذه الأخلاق، لأن تطبيقها يعنى السعادة، فقد جاء فى الإنجيل (العهد الجديد) ما معناه أن نسعى إلى الكمال كما أمرنا الله . ننفذ ما أمرنا به ونبتعد عما نهانا عنه.

الوصايا العشر هى اول مرحلة من مراحل علم الأخلاق فى العهدالقديم (التوراة). وتحتل الوصايا العشر مكانة أساسية سامية فى التعاليم الأخلاقية فى اليهودية

تؤكد المسيحية على زرع الأخلاق فى الفرد منذ الصغر وأن الالتزام بهذه الأخلاق والحرص على تطبيقها لا ينبع من كونها أوامر يجب ان تطبق، وانما هى (محبة الإنسان لخالقة) فالحرص على تطبيقها نابع من محبة الخالق

الأخلاق والاسلام

وقد جاء الإسلام ليكمل مكارم الأخلاق، وينقذ البشرية من براثن الجهل والعبودية. فأبقى على ما كان عليه الناس من أخلاق حسنة وأثنى على حُسن الخلق وحث على التحلى بها لما لها من أهمية كبيرة على الفرد والمجتمع. ونهى كذلك عن الأخلاق السيئة وأمر بالانتهاء عنها، فقال تعالى فى كتابه العزيز: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ).

وقد أولى الفكر الإسلاميَ للأخلاق عنايةً بالغةً، وأهميّةً بارزةً، ويظهر ذلك فى جعل إحدى أهمّ غايات بعثة النبيّ محمّد –صلّى الله عليه وسلّم- تعزيز الأخلاق الحَسنة. علاوة على ذلك فإنها ترسخ مفهوم التواصل بين أنبياء الله ورسله لمداومة تبليغ رسالات الله وأوامره ونواهيه لبنى البشر والتى اتفقت على تعظيم دور الأخلاق والتى أبرزها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ليؤكد على أن الأخلاق هى أحد أهم مصادر السعادة والرضاء فى الدنيا والآخرة.

ويمكن حصر نحو ٣٢ نموذجًا أو مثالًا لمكارم الأخلاق التى نحتاج إليها فى أى مجتمع وهى:

الصدق.. الأمانة.. الحلم.. الأناة..الوقار.. الشجاعة.. المروءة.. المودة.. الصبر.. الإحسان.. الاعتدال.. الكرم.. الإيثار.. سلامة الصدر.. الرفق.. العدل.. الحياء.. الشكر.. حفظ اللسان.. العفة.. الوفاء.. الشورى.. التواضع.. العزة.. الستر.. العفو.. التعاون.. الرحمة.. البر.. القناعة.. الرضا.. الألفة.. إعطاء القدوة والمثل.

وعندما يقول الله -تعالى- فى سورة الإسراء: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا *وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).[٨] فهذا يؤكد أن البعد عن الضمير والأخلاق واتباع الشهوات هو المندر بانتشار الفساد ودمار الأمم والمجتمعات وانهيارها بانهيار منظومة الأخلاق فيها.

الخلاصة أنه من أهم الكلمات المفتاحية (Key Words) فى أدبيات وفلسفات العلوم الأخلاقية كلمات مثل.. الضمير..الدين ..القانون .. مردود السلوك (على النفس أو الغير).

ويعتبر المحك الرئيسى للسلوك الإنسانى هو المساحة السلوكية التى لا يغطيها القانون وإنما تحكمها الأخلاقيات.

وقد يكون من المفيد للقارئ لكى يدعم المخزون المعرفى لديه فى هذا المجال أن يراجع أحد موضوعات علم النفس والتى يطلق عليها «الحيل النفسية الدفاعية» (Psychological Self Defense Mechanisms)

وعلى وجه الخصوص «ما يطلق عليه «التبرير (Rationalizing).

حيث يقدم الإنسان على سلوك قد يتعارض أو لا يتعارض مع القانون، ولكنه يتعارض مع المبادئ الأخلاقية، وبالتالى فيقدم عليه متعللا بتبريرات تبقيه – بينه وبين نفسه – فى ما يسمى بـ«منطقة الراحة وهى حالة «Comfort Zone ظاهرية من التصالح مع النفس، بعكس منطقة عدم الراحة (Discomfort Zone).

ويحضرنى فى هذا الصدد كلمات تلقيتها من ممرضة أمريكية مسنة كنت قد التقيتها فى الولايات المتحدة الأمريكية فى اوائل الثمانينيات وطلبت منها أن تلخص لى خبراتها فى صورة نصيحة مختصرة أتبناها فى حياتى بصفة عامة. وكانت نصيحتها لى والتى لم ولن أنساها ما حييت.

« فليكن ضميرك هو الحكم على أى وعلى كل ماتفعل» Always, Whatever, Wherever, Whenever, (Let your Conscience Be Your Judge).

وأعتقد أن نفس النصيحة هو ما سطره أمير الشعراء أحمد شوقى ليلخص لنا تبعات وويلات البعد عن الأخلاقيات بقوله:

«وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتمًا وعويلًا».